

## الإستقراء النحوي عند المحدثين د محمد عيد انموذجاً

إيمان بنت محمد المدني

### ملخص البحث

يهدف البحث إلى الوقوف عند ظاهرة الاستقراء النحوي التي تعد عمدة في الدراسات النحوية واللغوية عند علماء العربية الأوائل، وبيان الأسس المتينة التي انطلق منها علماء العربية لبناء قواعد العربية، والرد على مطاعن كثير من علماء اللغة في العصر الحديث، واتخذ البحث من الدكتور محمد عيد نموذجاً لدراسة آرائه في كتابه "الاستشهاد والاحتجاج باللغة"، واتبع المنهج التحليلي النقدي الذي يقوم على بسط آراء د. محمد عيد، وعرضها على ميزان النقد اللغوي الموضوعي المدعم بالشواهد والأدلة من التراث العربي، وقد توصل البحث إلى نتائج عدّة أبرزها الاضطراب في أحكام د. محمد عيد والاستقراء الناقص والتسرع في الطعن على ما جاء به علماء العربية الأوائل، والتأثر بعلم اللغة الحديث ومنهجه الوصفي، ومحاولة تطبيق المعايير الغربية على الدرس العربي القديم.

إن عمل د. محمد عيد خطوة للتجديد في الدراسة اللغوية والنحوية ولكن تجريد التراث العربي الأصيل يحتاج استقراء كاملاً للتراث العربي، وحبذا لو جمعت الدراسات العربية بين التراث والحداثة لتسير خطوات علمية دقيقة، فتتصف التراث العربي، وتأخذ من علم اللغة الغربي الحديث ما يوافق العربية نحوها وبنيتها ولغتها وتاريخها، وبذلك يؤتي التجديد أكله، وتغدو الدراسات اللغوية العربية الحديثة أفضل وأكثر تقدماً.

**الكلمات المفتاحية:** الاستشهاد، الاحتجاج، التراث العربي، علم اللغة الحديث، دراسة

نقدية

## Research Summary

The research aims to stand at the phenomenon of grammatical induction, which is considered the basis of grammatical and linguistic studies among the first Arab scholars, and to demonstrate the solid foundations from which Arab scholars set out to build Arabic grammar, and respond to the stabs of many linguists in the modern era. The research took Dr. Muhammad Eid as a model to study his views in his book “Protesting in Language”, and followed the critical analytical approach based on extending the opinions of Dr. Muhammad Eid, and presenting it on the objective linguistic criticism balance supported by evidence from Arab heritage. The research reached several results, most notably the turmoil in the provisions of Dr. Muhammad Eid, imperfect induction and haste to challenge what was said by the first Arab scholars, influenced by modern linguistics and its descriptive method, and attempted to apply Western standards to the ancient Arab lesson.

The work of Dr. Muhammad Eid is a step for renewal in the linguistic and grammatical study, but the renewal of the authentic Arab heritage needs a complete extrapolation of the Arab heritage, and it would be desirable if Arab studies combined heritage and modernity to proceed with accurate scientific steps, so that they do justice to Arab heritage, and take from modern Western linguistics what corresponds to Arabic towards it And its structure, language and history, and thus the renewal will bear fruit, and modern Arabic language studies will become better and more advanced.

**Key words:** Linguistic evidence, protest, Arab heritage, modern linguistics, critical study

### خطة البحث:

- مقدمة: تتضمن التأصيل لمصطلح "الاستقراء"، وبيان جهود العرب الأوائل في وضع القواعد النحوية وفق منهج دقيق محكم.
- أبرز آراء "محمد عيد" - الباحث في علوم اللغة والنحو - وفق كتابه "الاستشهاد والاحتجاج باللغة"، ونقدها، وأهمّها:
  - 1- الرواية.
  - 2- التحديد الزمني للاستقراء النحويّ.
  - 3- التحديد المكاني للاستقراء النحويّ.
  - 4- موقفه من الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشريف.
  - 5- تقويم آراء علماء العربية الأوائل وفق وجهة نظر محمد عيد.
- خاتمة وتتضمن نتائج البحث.
- قائمة المصادر والمراجع

## المقدمة:

يقوم البحث على تأصيل مصطلح "الاستقراء" عند علماء العربية، بوصفه الخطوة الأولى نحو الانطلاق لبناء منهج نحوي أصيل، ومن ثمّ الوقوف على كثير من آراء المحدثين ممثلة بـ د. محمد عيد صاحب كتاب "الاستشهاد والاحتجاج باللغة"، وعرض كثير من الآراء التي أوردها على ميزان النقد، وبيان ما فيها من مغالطات وتصويها.

## حدود البحث:

الحدود الموضوعية: دراسة نقدية لآراء د. محمد عيد في كتابه "الاستشهاد والاحتجاج باللغة".

أهدافه: يهدف البحث إلى تحقيق الأهداف الرئيسة الآتية:

- 1- تأصيل مصطلح "الاستقراء".
  - 2- عرض أبرز آراء د. محمد عيد في كتابه "الاستشهاد والاحتجاج باللغة" ومناقشتها ونقدها بغية إنصاف التراث العربي.
- وأبرز هذه الآراء: الرواية، التحديد الزمني والمكاني، الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشريف.

**منهج البحث:** يعتمد البحث المنهج الوصفي لأسس الاستقراء النحوي واللغوي عند علماء اللغة الأوائل، ومن ثمّ تحليل هذه الأسس وفق رؤية د. محمد عيد، ونقدها.

**إجراءات البحث:** وتقوم على:

- 1- عرض سريع لمصطلح الاستقراء.
- 2- دراسة آراء د. محمد عيد اللغوية التي وضعها وفق علم اللغة الحديث ومناقشتها وردّ كثير منها.

3- نتائج عامة حول ما طرحه د. محمد عيد في كتابه موضوع البحث.

## مقدمة

يعد الاستقراء النحوي الخطوة الأولى لبناء الدرس النحوي الأصيل، وقد كان عمدة النحويين في وضع القواعد النحوية، فالنحو كما عرّفه أبو بكر بن السراج "ت316هـ": "علم استخراج المتقدّمون من استقراء كلام العرب"<sup>(1)</sup>.

وقد تنوعت تعريفات الاستقراء في المعاجم اللغوية والمصطلحية، أما الاستقراء - لغة - فقد ذكر صاحب اللسان أن معنى "الاستقراء" مأخوذ من "قرا الأرض قرواً واقتراها وتقرّأها واستقراها": تتبّعها"<sup>(2)</sup>، وجاء في المعجم الوسيط "استقرى الأشياء: تتبّعها لمعرفة أحوالها وخواصّها"<sup>(3)</sup>.

أما الاستقراء - اصطلاحاً - فقد ذكر الكفوي تعريفه بقوله: "هو تتبّع جزئيات الشيء"<sup>(4)</sup> وذكر أنواع الاستقراء، فقال: "النّام منه: هو الاستقراء بالجزئي على الكلّي... والناقص: هو الاستقراء بأكثر الجزئيات... والاستقراء بجزئي على جزئي هو تمثيل يسميه الفقهاء قياساً"<sup>(5)</sup>.

الاستقراء بأنواعه من تتبع تام لجزئيات الشيء أو استقراء ناقص أو القياس كان ركيزة الدرس النحوي العربي قديماً، فتتبع كلام العرب عن طريق السماع من الأعراب الأفتحاح، والقياس على ما نطقوه، هما من أسس الاستقراء المنظم الذي سار عليه النحاة الأوائل، وبنوا النحو العربي بنياناً راسخاً لا يمكن النيل منه.

واستمّر التأليف في ميدان النحو معتمداً على الاستقراء ومحدّاته من زمان ومكان ورواية، فقد كان الاستدلال باللغة منظماً ومنضبطاً، إذ تتبع النحاة الكلام الفصيح في مظانّه زماناً ومكاناً ورواية، ولهذا فليس كل شاعر يحتجّ به في اللغة، قال الأصمعي "ت215هـ": "ختم الشعراء بابن هرمة"176هـ"، والحكم الخضري "150هـ"، وابن ميادة "149هـ" وطفيل الكِناني ومكين العذري"<sup>(6)</sup>.

وكانوا يفضّلون أهل البداية على أهل الحضر، قال ابن جني: "وليس أحد من العرب الفصحاء إلاّ يقول: إنّّه يحكي كلام أبيه وسلفه، يتوارثونه آخر عن أول، وتابع عن متبّع، وليس كذلك أهل الحضر"<sup>(7)</sup>.

وفي هذين القولين وغيرهما دليل على جهود العرب القدماء في انتقاء اللغة الفصيحة مكاناً وزماناً ورواية، وسار علماء العربية الأوائل على أدلة دقيقة في استنباط القواعد النحوية وتحليل الظواهر اللغوية وفق نهج واضح محدّد، إلى أن بدأت الدراسات الحديثة للغة تأخذ منحى جديداً في البحث، فحاول بعض الدارسين إعادة تقسيم النحو والكلام على نحو جديد متأثرين بدراسات غربية لسانية، وأحياناً بدافع التجديد، وأخرى كانت محاولات طاعنة في التراث العربي تحاول تفويض أركان النحو وتشكّك في بنيته.<sup>(8)</sup>

وسأتناول في هذا البحث الباحث د. محمد عيد<sup>(9)</sup> نموذجاً لأفكار المحدثين وانتقاداتهم لكونه الأكثر بحثاً في الاستقراء النحوي، وأكثر المحدثين طعناً في هذا الموضوع، فكان له أثر كبير في اللاحقين من بعده من المحدثين، ولا نكاد نعثر على دراسة معمقة لمناقشة آرائه ونقدها.

واشتهر محمد عيد بكتابه: "الاستشهاد والاحتجاج باللغة" والكتاب يقع في مئتين وتسع وسبعين صفحة، ويتضمن بابين، ولكل باب فصلان، درس في الباب الأول الرواية والاستشهاد باللغة في آراء النحاة، وقسمه إلى فصلين، ففي الفصل الأول بحث في المقصود بالنحاة والرواة والأعراب وجوانب النشاط العلمي في حركة الرواة العرب، وموقف النحاة من الرواة والشعراء والأعراب، وما قبل وما لم يُقبل من المادة المروية، والضوابط السلوكية للرواية والتناقس بين الرواة.

وأما الفصل الثاني فدرس فيه الاستشهاد والاحتجاج باللغة، وموقف النحاة من مصادر الاحتجاج والتفريق في الاستشهاد بين كلام العرب وكلام الموالي، ثم اختتم الباب الأول بتعقيب بيّن فيه آراءه في الفصلين السابقين، وفي الباب الثاني اهتم محمد عيد بتقويم آراء النحاة في الرواية والاستشهاد باللغة، وقد ركز في الفصل الثاني على قضايا الرواية والاستشهاد في ضوء علم اللغة الحديث، وتقويم آراء الأقدمين من وجهة نظر المحدثين، وفي آرائه تشكيك في استقراء النحويين واستنتاجاتهم.

وسأتناول أبرز آرائه - عرضاً ونقداً فيما سيأتي.

آراء محمد عيد في كتابه "الاستشهاد والاحتجاج باللغة" ونقدها:

أولاً: الرواية: حدّد علماء العربية الأوائل شروطاً لناقلي اللغة ورواتها وذلك في إطار حرص النحويين على استقرار لغوي دقيق، فقد ذكر ابن فارس "395هـ" ذلك في جمع اللغة بقوله: "تؤخذ سماعاً من الرواة الثقات ذوي الصدق والأمانة، ويُتقى المظنون"<sup>(10)</sup>.

ونقل السيوطي "ت911هـ" عن أبي بكر الأنباري "ت577هـ" أنه: "يشترط أن يكون ناقل اللغة عدلاً رجلاً كان أم امرأة، حرّاً كان أم عبداً، كما يشترط في نقل الحديث... فإن كان ناقل اللغة فاسقاً لم يُقبل نقله"<sup>(11)</sup>. وتوسّع العلماء في نقاش الشروط التي يجب أن تكون في الناقل والمنقول والمنقول إليه.

ومع حرص النحويين الأوائل على عامل الثقة في الرواية نرى محمد عيد يقول:  
"إن نظرة النحاة لرواة اللغة لم تحقّق الإنصاف والموضوعية، إذ تدخل في هذه النظرة عوامل شخصية أو عصبية أو مدعاة"<sup>(12)</sup>.

واتّهم النحويين العرب "بتخريب النصوص وتحريفها عن ظاهر الرواية فيها، وأحياناً بافتراض الوجوه فيها على مقتضى القواعد، وهذا مسلك قد جانبه التوفيق في جملته وتفصيله"<sup>(13)</sup>. وحكم بهذا بعد أن استعرض حوادث مجتزأة وفردية. ووجد محمد عيد في بعض شواهد النحو مدخلاً للتشكيك في القواعد النحوية، فقال: "إذا أخذ في الاعتبار أنّ كثيراً من شواهد النحو مجهول السبب أو متعدّد النسبة، أو نصّ العلماء أنفسهم على أنه مخترع لا أصل له، فإذا كان الأمر على ما هو عليه حتى الآن في مسائل النحو من عدم تعيين ما داخله الشك في هذه المادة اللغوية، اتّضحت لنا خطورة الموضوع، إذ يتطرق الشك إلى جملة من الشواهد النحوية، ولا يسلم منها إلا ما قام الدليل على صحته، وهذا أمر مؤسف، لكنّه الواقع الذي لا يصحُّ تجاهله"<sup>(14)</sup>.

إن محمد عيد يحكم بكثرة الشواهد المجهولة دون أن يقوم بإحصاء دقيق لهذه الشواهد وهو بهذا يبتعد عن الموضوعية، ومن ثمّ فإنّ الشواهد القليلة التي لم يصحّح باسم قائلها قليلة جداً قياساً للشواهد صحيحة الرواية والنسبة، وحتى هذه الشواهد القليلة التي بنيت عليها بعض القواعد لها نظائر في أشعار العرب وأقوالهم.<sup>(15)</sup>

وذكر محمد عيد أيضاً في معرض نقده استقراء النحويين الأوائل "أنّ من نواحي الضعف في استقراء النحاة قصور الجهد عن الإحاطة باستقراء الظاهرة اللغوية، وهذا يؤدي إلى نتائج قاصرة أو غير صحيحة"<sup>(16)</sup>.

فمحمد عيد يريد أن يكون الاستقراء تاماً، وهذا مستحيل، بمعنى أن يستقصى النحوي جوانب البيئة المكانية والزمانية كلها بتفاصيلها التامة، وقد قال ابن قتيبة "ت267ن" في ذلك:

"والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط، أو يقف من وراء عددهم واقف، ولو أنفذ عمره في التنقيب عنهم، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال، ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه، ولا قصيدة إلا رواها"<sup>(17)</sup>.

ونائج الاستقراء الناقص عند النحويين لشعر قبيلة أو لظاهرة نحوية أو لغوية لا تدل على نقصان الأدلة وضعفها، بل هذه النتائج تتسم بالشمول، وتندرج ضمنها آلاف من الأمثلة، إذ ليس بالضرورة أن يشرب المرء كل ماء البحر ليستدلّ على ملوحته.<sup>(18)</sup>

ومما أخذه محمد عيد على الرواية انفراد بعض الشعراء والرواة بأقوال نادرة لم ترد إلا عنهم، فهي من قبيل بناء قاعدة على النادر أو المصنوع، ويقول في ذلك: "من الواضح أن بعض مادة اللغة التي استخدمت في الدراسة جاءت كما شاء لها الرواة والنحاة أن تكون، لا كما استعملها الناطقون من الشعراء والأعراب فانزلت بذلك لدائرة الشك"<sup>(19)</sup>.

وهو بحكمه هذا استند إلى بعض الأقوال النادرة وبعض الأبيات المصنوعة من قبل بعض الكوفيين، أو بعض الأوزان والألفاظ التي اشتهر بها العجاج ورؤبة، وهما اشتهرا بكونهما مصدرأ لبعض الألفاظ اللغوية الغريبة، ولا يشكّ بهما، لأنهما من مصادر التشريع اللغوي، لأنّ "العريّ" إذا قويت فصاحته وسمت لغته تصرّف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله إليه"<sup>(20)</sup>.

ومحمد عيد عمد إلى القليل النادر ليبيّن شكه في الرواية، وأغفل الأقوال المشهورة التي تؤكّد سلامة المنهج النحوي في الاستشهاد، كقول أبي عمرو بن العلاء "ت159هـ": "لا أقول: قالت العرب إلا ما سمعت من عالية السافلة وسافلة العالية"<sup>(21)</sup>.



وفي هذا دليل على موضوعيّة علماء النحو الأوائل في النقل والرواية، فهم لا ينتقون ما يشاؤون من اللغة إلا وفق شروط علميّة من حيث الثقة والكثرة، ولهذا كانت قواعدهم معياراً للظواهر اللغوية العامة.

### ثانياً: التحديد الزمني للاستقراء النحوي:

حدّد أهل اللغة الإطار الزمني للاحتجاج بنحو قرنين قبل الإسلام، وانتهاء بالقرن الثاني الهجري بالنسبة لأهل الأمصار، أمّا بالنسبة لأهل البادية فيمتدّ الزمن إلى المئة الرابعة.<sup>(22)</sup> وكان لمحمد عيد رأيه في هذا، إذ قال: "أول ما يستدرك على استقراء النحاة هو تعطيل مهمّته، إذ وقفوا به عند وقت مقيد، وتركوا العربيّة تتطوّر بعد هذا العصر دون دراسة"<sup>(23)</sup>. وقوله: "اقتصرت الاتجاه الذي سلكه علماؤنا في دراسة الشواهد النحويّة بعد القرن الرابع على الالتفات إلى الوراثة لرصد ما صنعه أسلافهم في ذلك من قبل، وكانت سمات هذا الرصد التجزئة والمسائل المفردة والأبيات المتناثرة في غالب الأحوال، وهذا الاقتصار في الدراسة وفي المادة اللغوية موضع تساؤل في مسلك اللغة الاجتماعي المتطوّر باستمرار"<sup>(24)</sup> والملاحظ من قوليه السابقين أنّه يوهّم القارئ بعشوائية الجهود النحوية وقصورها وعدم انتظامها، وهذا ما سمّاه بـ"التجزئة"، وكذلك يلمح إلى إغفال النحويين تطوّر اللغة، واتهامهم بتعطيل مهمة الاستقراء وتحديدتها تحديداً يجعلها ثابتة جامدة، فهو ينتقد الإطار الزمني للاستقراء.

واتهام النحويين القدامى بإغفال تطوّر اللغة لم يتعرّض لها محمد عيد وحده، بل نجد مثل هذا الاتهام عند بعض علماء اللغة المحدثين مثل: د.تمام حسّان الذي دعا إلى إطلاق سراح اللغة، وتسجيل كل مرحلة من مراحل تطورها، ويقول في ذلك: "وتلك حقبة لا يمكن أن تظلّ اللغة فيها ثابتة على حالها، وإنما المعقول أن تكون اللغة قد تطورت من نواحي البنية والنطق."<sup>(25)</sup>

ولا بدّ من الإشارة إلى أن النحويين عندما حدّدوا عصور الاحتجاج كان تحقيقاً لغاية علم النحو، وهي حفظ العربية وصيانتها من اللحن، وفهم لغة القرآن الكريم، فامتنعوا عن الاحتجاج بالعصور اللاحقة، فالدرس اللغوي وجد خدمة للدين وقد ذكر ابن جني أن النحو وجد ليكون "خادماً للكتاب المنزل وكلام نبيّه المرسل، وعوناً على فهمها"<sup>(26)</sup>.

أمّا الحديث عن التطور في البنية النحوية فلم يكن هذا الأمر ليعني النحاة، ولم يكن هدفهم الأساسي ملاحظة أوجه الاختلاف بين لغة العصر الجاهلي وما يليه، واستقصاء الظواهر التطورية الجديدة التي تتعرض لها العربية.

ومن نقاط الانتقاد التي وجهها محمد عيد للإطار الزمني للاستقراء قصر اللغة الصحيحة على عصر بعينه، يترتب على ذلك قصر الدراسة على هذا العصر وحده والانصراف عن غيره من العصور اللاحقة، فإن ذلك، كما قال فندريس: "فرض خيالي لا قيمة له، إذ يجب أن نستسلم بالتغيير ولا نستسلم للبكاء على العصر الذهبي، فإنّه لا وجود له، فيقيد عصر الاستشهاد لدى النحاة العرب، وما عدّه علماء اللغتين اللاتينية والإغريقية الكلاسيكيون من مثل أعلى فيهما، وصلتا إليه، ثمّ أخذتا بعد ذلك في الانحدار والفساد لا يتفق مع الفهم اللغوي الحديث، ولا يتوافق مع تطوّر اللغة"<sup>(27)</sup>.

إن رأي محمد عيد السابق ينطوي على خطورة كبيرة، واتباع هذا الرأي سيؤدي إلى خلل في المنهج النحوي واللغوي وسيحدث فوضى لغوية، إذ لا يقترّ بوجود عصر نشط ذهبي للغة، ويشير إلى غياب المعيارية في الأحكام اللغوية والنحوية، وفي ذلك خلط ومغالطة، إذ إن علماء النحو اشتهروا برصد القوانين الضابطة للعربية، وأفنوا حياتهم في المنافحة عن لغة القرآن والسنة من أي انحراف ولحن.<sup>(28)</sup>

وأما مقارنة محمد عيد العربية باللاتينية والإغريقية فهذا لا يستقيم من أوجه عدّة، إذ لكل لغة تاريخها ومزاياها التي تنفرد بها، وكذلك فالعربية مرتبطة بلغة القرآن الكريم المحفوظ من الاندثار والانحدار، وتتمتع العربية بمزايا التوليد والإعراب والتشكيل وغيرها من عناصر الحيوية والحياة.

واعترض محمد عيد على عصور الاحتجاج دون غيرها ينطوي على دعوة إلى دراسة جميع العصور واعتمادها للاحتجاج، وهذا يؤدي إلى تشتيت الفكر النحوي واختلال معايير الصواب والخطأ، وضياع الجهود النحوية. واقتصار الاحتجاج على عصور محددة لا يدلُّ على أنّ نتائج الدراسة النحوية خاصة بتلك العصور دون غيرها، وكتب النحاة الأول خير دليل

على ذلك مثل كتاب سيبويه، فنتائج اللغوية وأسسها النحوية مازالت سارية على العربية إلى يومنا الحالي. (29)

### ثالثاً: التحديد المكاني للاستقراء النحوي:

انتقد محمد عيد التحديد المكاني الذي اعتمده النحاة العرب للاستقراء وأخذ اللغة، فقد حصر علماء اللغة الأوائل الاستشهاد بقبائل مخصوصة، وبنى محمد عيد آراءه في نقد التحديد المكاني للاستقراء والاستشهاد على نصّ الفارابي الذي نقله السيوطي في المزهرة وحصر فيه الاستشهاد بقبائل "قريش وقيس وتميم وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين" ومما قاله الفارابي "ت398هـ":

"كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانة عمّا في النفس، والذين عنهم نقلت اللغة العربية، وبم اقتدي، وبعثهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد، فإنّ هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم أتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثمّ هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ من غيرهم من سائر قبائلهم" (30).

ونصّ الفارابي السابق ليس دقيقاً إذ استشهد النحاة بقبائل كثيرة لم يذكرها الفارابي كقضاة وغسان وإياد، واستشهد سيبويه بأهل الحواضر أيضاً كشعراء مكة. (31)

وقد انتقد محمد عيد التحديد المكاني بقوله: "اعتمد النحاة في أخذ اللغة على قبائل متعدّدة وخليط من الناطقين، فترتب على ذلك ضياع الفكرة الشخصية والاجتماعية للغة" (32) وقال أيضاً: "الخلط بين بيئات متعدّدة أو قبائل مختلفة- كما فعل النحاة العرب- يفقد سلامة المنهج والدراسة جميعاً" (33).

يريد محمد عيد أن تدرس كل بيئة ولهجة على حدة ضمن دراسة وصفية، ودعوته هذه كانت بتأثير آراء علماء اللغة واللسانيات المحدثين أمثال: فيرت ودي سوسير وغيرهما. (34)

ولا بدّ من الإشارة إلى أن علماء النحو الأوائل اتخذوا من المنهج الوصفي أساساً لتفصيل النحو واللغة فدرسوا القواسم المشتركة بين اللهجات مع الإشارة إلى اختلافاتها، ولما اكتملت

لديهم صورة القواعد النحوية وشمولها للظواهر اللغوية أصبحت الدراسة معيارية، وهذا تطوّر طبيعي للدراسة النحوية.<sup>(35)</sup>

والانتقادات التي أخذها محمد عبيد على النحو العربي في التحديد المكاني وعدم اتباع المنهج الوصفي كما يراه المحدثون، أمر انتقلت عدواه إلى أغلب المحدثين الذين أعجبوا بالأفكار اللغوية الغربية، ولكنهم سرعان ما انتقلوا إلى منهج آخر وهو التحويلي ومن ثمّ التوليدي.<sup>(36)</sup> أمّا دراسة اللغة من حيث التركيز على العناصر الشخصية والاجتماعية للغة، كما هو الحال في دراسة اللهجات، فهي عديمة الجدوى، ولذلك فالنحويون العرب لم يتوقفوا ملياً عند دراسة اللهجات، لأنها متغيرة، واقتصروا على اللهجات التي لها صلة بلغة القرآن الكريم، فدرسوا الظواهر اللهجية الجامعة التي تدعم النص القرآني الكريم والحديث النبوي الشريف. وأقرّت كثير من الدراسات الحديثة عدم جدوى دراسة اللهجات لأنها عناصر غير ثابتة وتتغير بسبب التنقل والتطور، وقد عبّر عن ذلك عالم اللغة الإنجليزي رايت "ت930م" بقوله: "ليس هناك أدنى شك بأنّ الكلام اللهجي الخالص أخذ في الاختفاء بسرعة حتى في المناطق الريفية بسبب انتشار التعليم والوسائل الحديثة في الاتصال حول لندن، فقد أصبحت مختلطة إلى حدّ يدعو إلى اليأس ممّا جعلها عديمة الجدوى لعلم فقه اللغة"<sup>(37)</sup>.

رابعاً: موقف محمد عبيد من الاستشهاد بالقرآن الكريم:

### 1- الادعاء بقلة الاستشهاد بآيات القرآن الكريم في الدراسات النحوية:

قال محمد عبيد: "إنّ دارسي اللغة قد صرفوا أنفسهم عن استقراء النص القرآني لاستخلاص قواعدهم منه.. ولا أعتقد أنني أتجاوز وجه الحق كثيراً، إذ أزعّم أنّ هذا الانصراف عن الاعتماد على النص القرآني في الاحتجاج قد شمل معظم النحاة تقريباً، فيما أعلم، ما عدا ابن هشام الذي وجّه الكثير من عنايته إليه"<sup>(38)</sup>.

وأرجع السبب إلى التحرّز الديني والتنزّه، لكنه أكد أنه "لم يستطع أحد من علماء اللغة الذين تحدّثوا عن الاستشهاد بنصّ القرآن أن ينكر حجّيته"<sup>(39)</sup>.

ولا بد من الإشارة إلى أن النحويين الأوائل اعتنوا بالقرآن الكريم وشرحه وأعاريبه، ولهم في ذلك مصنفات عديدة، مثل: معاني القرآن للقرّاء "ت207هـ"، ولأبي جعفر النحاس "ت328هـ" ولأبي البقاء الكفوي "ت538هـ" وغيرهم.

ولا يمكن إغفال ما صنّفه النحويون في تخريج القراءات على نحو ما فعل أبو علي الفارسي "ت377هـ" في كتابه "الحجّة في القراءات" وابن جني "ت394هـ" في "المحتسب" وغيرهما كثير.

وقد درست الباحثة خديجة الحديشي شواهد سيبويه، فخلصت إلى القول: إن سيبويه "من أكثر النحاة تمسكاً بالشاهد القرآني، وإحلالاً له، وكان يضعه في المرتبة الأولى" (40).

وكذلك وضعت الباحثة فائزة بنت عمران المؤيّد كشافاً للشواهد القرآنية في المصادر النحوية، فكانت الشواهد ستة آلاف ومئتين وستاً وثلاثين آية، وهي كل آيات القرآن الكريم. (41)

إذن: إن فكرة قلة الاستشهاد بالنص القرآني غير دقيقة، وكتب الأوائل تثبت خلافها، وما جاء به محمد عيد غير مقنع، لأن النحاة كانت عمدتهم آيات القرآن الكريم، وهي الأساس الأول في الاستشهاد، والأوائل كانوا يتنزهون أحياناً عن تفسير بعض آي القرآن الكريم المختلف في معناها ويتحرّجون خشية الإتيان بمعنى لم يرده الباري عزّ وجلّ، أمّا الاستشهاد النحوي بما فأمر كثير.

## 2- عدم الاستشهاد بالحديث الشريف:

رأى محمد عيد أن النحويين "صرفوا أنفسهم عن الحديث، فلم يدرسوه لاستنباط آرائهم ثمّ الاحتجاج به عليها" (42).

والحقيقة أن المحدثين على نحو عام رأوا أن قلة الاستشهاد بالحديث الشريف تعدّ ثغرة في المنهج النحوي، فقد قال شوقي ضيف: "رأى أئمة اللغة والنحو من علماء البصرة والكوفة وبعداد ألاّ يحتجوا بشيء من الحديث في إثبات لغة العرب والاستدلال على القواعد التي دونها" (43).

وقد اعترض قديماً بعض النحويين على الذين احتجوا بالحديث، من أمثال ابن الضائع  
"ت680هـ" وأبي حيّان الأندلسي "ت745هـ".<sup>(44)</sup>

وتصدّى بعض المحدثين للرد على هذه الشبهة، ومن هؤلاء أحمد مختار عمر حيث قال:  
"كان المتأخرون مخطئين فيما ادّعوه من رفض القدماء الاستشهاد بالحديث"<sup>(45)</sup> واشتهرت  
الباحثة خديجة الحديثي بكتابتها "موقف النحاة من الاستشهاد بالحديث الشريف" الذي  
توصّلت فيه إلى آراء مهمّة في هذا المجال، إذ رأت أن النحاة لم يكثروا من الاحتجاج  
بالحديث، لأنّه لم يكن مدوّناً في زمانهم"<sup>(46)</sup>.

وقلة الاحتجاج بالأحاديث الشريفة في استقراء النحويين الأوائل لا يدلّ على نقص  
القواعد النحوية أو عدم صحة الاستشهاد بها. وثمة اتفاق بين النحاة واللغويين على أن  
الحديث الثابت بلفظه وبروايته الواحدة يحتج به.

#### خامساً: تقويم آراء الأقدمين من وجهة نظر محمد عيد:

انتقد محمد عيد استقراء النحويين من حيث "افتقار الاستقراء إلى الخطّة المنظمة  
واعتماده على الجهد الشخصي ممّا انعكس أثره على اضطراب الدراسة ونتائجها"<sup>(47)</sup>.  
وهذا الانتقاد مدفوع، وفيه جور على الدراسات النحوية واللغوية، فكتب النحويين  
القدامى منظمة الأفكار، دقيقة العرض، ومبنية على خطّة محكمة، وكتاب سيبويه وغيره نموذج  
للدراسات الموضوعية المنظمة، وقد بناه صاحبه على استقراء نحوي دقيق وشامل. وكذا كتب  
ابن جني والجرجاني ومعاجم اللغة.

وقد اقترح تقويمياً للاستقراء النحوي يقوم على التخصص في الدراسة بصنف معين من  
اللغة للوصول إلى نتائج خاصّة، ويرفض الدراسة الشاملة للغة، ومن ذلك قوله: "إنّ نتائج  
الدراسة ينبغي أن ترتبط بالمادة اللغوية التي كانت موضع الدرس ولا تتعدّها، فإذا درس الشعر  
وحده، كانت نتائج الدراسة له، وبالمثل النثر واللهجات، أمّا أن يلجأ الدارس إلى صنف معيّن  
من اللغة كالشعر الغريب لدى النحاة مثلاً، ثمّ يدّعي أنّه يمثّل كل مستويات اللغة موضع  
الدرس، فهذا مرفوض"<sup>(48)</sup>.

وهذا الكلام جاء عاماً ويحتاج دقة وتفصيلاً واستجلاء للحقيقة من أوجه عدّة. لأن الدعوة إلى دراسة كل مستوى لغوي على حدة فيها مغالطة، لأن المستويات اللغوية تجمعها ظواهر لغوية مشتركة وإن اختلفت فيما بينها فنيّاً، فعلم النحو واللغة قواعده معيارية واحدة لا تختلف في الشعر عن النثر، وهذا التقسيم إلى مستويات يؤدي إلى الدراسة الشكلية الحديثة للغة التي تقوم على الفصل بين النحو والصرف والصوت والمعنى الدلالي، ودراسة النحويين الأوائل كانت متكاملة، لأن اللغة العربية بنية واحدة فالنحو والصرف والصوت في خدمة المعنى، ولا يمكن الفصل بين هذه المستويات إلا حديثاً لتسهيل الدراسة وتيسير دراسة اللغات وفهمها والمقارنة بينها.

وكذلك فإن كلام محمد عيد ينضوي على تضليل للمتلقي، حين يقول: إن الدرس اللغوي القديم لجأ إلى صنف معين من اللغة كالشعر الغريب، لأن النحويين لم يعتمدوا الشعر الغريب في إلا مواضع قليلة مقارنة بالشعر الواضح المعروف، ولم يبنوا قواعد خاصة بالشعر الغريب، بل كان لهذا الشعر الغريب أمثلة يقاس عليها كلام العرب. وما جاء شاذاً غريباً فهو قليل. واعتماد محمد عيد وأمثاله من المحدثين على بعض الأبيات الشاذة في دفع بعض قواعد العربية وانتقاد المنهج النحوي واللغوي عندهم أمر مرفوض، فقدبماً قالوا: "من حمل شاذّ العلماء، حمل شراً كبيراً"<sup>(49)</sup>.

فاستقرأ النحويين الأوائل اتّسم بالشمول والعمق، لذلك بنوا قواعدهم على أسس راسخة متينة.

## خاتمة وتتضمن أهم نتائج البحث:

يعد د. محمد عيد من الباحثين المحدثين الذين نظروا إلى التراث العربي انطلاقاً من علم اللغة الحديث، ولذلك بنى آراءه استناداً لما جاء في الدراسات الغربية وما فيها من تأثير بالمنهج الوصفي، وهو في ذلك يلتقي مع كثير من المحدثين، وهذه الآراء كانت مضطربة ومتسرّعة ومجحفة في حق التراث، وقد اتخذ د. محمد عيد من الاستقراء النحوي ومحدداته أساساً للطعن على جهود علماء العربية الأوائل. وقد حاول هذا البحث عرض كثير من آرائه وتحليلها ونقدها بغية الوصول إلى الصواب فيها، وخلص البحث إلى نتائج عدّة منها:

1- غياب طابع الأصالة الفكرية في النقد، لأنّ من يتصدّى للتراث العربي رواية واستشهاداً يجب عليه الاطلاع الدقيق على أقوال العلماء وطرائقهم في الرواية والجمع وتقبل اللغة مع مراعاة البيئة الزمانية والمكانية ومجرباتها، ومحمد عيد في ميدان نقده للرواية عند علماء العربية الأوائل أعوزته الموضوعية والقياس واستقراء شواهد العربية وإحصاؤها، ولذلك جاءت أحكامه متناقضة مضطربة غير دقيقة في أغلب المواضع.

2- حاول محمد عيد اتخاذ الآراء الشاذة أحياناً، والقصص النادرة، واعتماد الغريب القليل في اللغة للطعن في الفكر النحوي عند القدامى، وحاول تغييب الجهود النحوية المتسعة، فبنى أحكامه على جزئيات لا على العام المتسع الفصيح، فغدت آراؤه قاصرة محدودة.

3- إن دراسة التراث العربي من منظور علم اللغة الحديث، والتأثر بالمنهج الوصفي عند علماء الغرب أدى إلى نقد محمد عيد للاستقراء المكاني والزمني عند علماء العربية الأوائل، وأوقعه بفوضى لغوية وخلل في المنهج النحوي واللغوي، لأن اللغة ظاهرة اجتماعية تتأثر بالزمان والمكان ولا يمكن تطبيق معايير العصر الحديث على قواعد راسخة بناها الأوائل منذ مئات السنين، ووضعوها بعد تمحيص ونقد ومشافهة وسماع وقياس. فلا يمكن إجراء مقارنة- كما فعل- بين العربية واللاتينية والإغريقية، فلكل لغة خصائصها ومزاياها التي تنفرد بها عن غيرها، ويمكن إجراء بعض الدراسات التقابلية للتعرف على خصائص كل لغة على حدة، بالمقارنة ههنا لا تصح.



4- ادعاء محمد عيد وكثير من المحدثين بقلة الاستشهاد بآيات القرآن الكريم وندرتها في الحديث الشريف في الدراسات النحوية القديمة أمرٌ مدفوع بالدراسات الإحصائية التي تم إجراؤها من قبل باحثين محدثين أيضاً.

5- الاقتراحات التي قدمها د. محمد عيد لتقويم الاستقراء النحوي والتي يقوم أبرزها على تخصيص الدراسات النحوية ودراستها وفق مستويات تبدو غير مقنعة ومستوردة من علم اللسانيات الحديث الذي يدعو إلى توزيع اللغة إلى أقسام ومستويات، ودراسة كل مستوى على حدة. وهذا لا يتفق وبنية العربية التي تعنى بالمستوى الصوتي والنحوي والصرفي وصولاً إلى الدلالي المعنوي في استقراء متكامل، مبني على أسس متينة شاملة.

6- إن محاولة المحدثين ود. محمد عيد في كتابه "الاستشهاد والاحتجاج باللغة" تيسير اللغة والنحو يوقعهم في اضطراب وازدواجية بين ادعاء التيسير من جهة وممارسة التضيق في طرح الفكرة النحوية ومعالجتها من جهة أخرى، ويجعلهم عاجزين عن تقديم بدائل نحوية أو تجديد للنحو من داخله وليس من أفكار الغرب وأساليبهم ومناهجهم الموضوعية للغاتهم في الأصل.

7- إن الدفاع عن التراث النحوي لا يعني بلوغه الكمال، فثمة سقطات لبعض النحويين، وأغلاط لبعض اللغويين، فمنهج النحويين لا يخلو من بعض الشوائب، لكن النقد الموضوعي يجب ألا يؤدي لهدم أصول هذا العلم وجهود علمائه الأوائل.

8- حاول محمد عيد في كتابه مناقشة آراء العلماء الأوائل في الاستشهاد والاحتجاج في ضوء علم اللغة الحديث ومجرباته وهذا أوقعه في خلل كبير، فكان لاستقراءه الناقص وثقافته الغربية أثر في زيف ادعاءاته أحياناً حول التراث، وقد حاول تقديم رؤى لتيسير النحو ولكن لم يوفق إلى ذلك في نواحٍ عدّة على نحو ما رأينا في كتابه.

أرجو أن يكون هذا البحث قد قدم صورة عن آراء كثير من الباحثين المحدثين ومنهم

د. محمد عيد.

## المصادر والمراجع:

- 1- أباطيل وأسمار: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت.
- 2- الاحتجاج بالشعر في اللغة: محمد حسن جبل، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986م، د.ط.
- 3- إحياء النحو: إبراهيم مصطفى، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ط2، 1992م.
- 4- الاستشهاد والاحتجاج باللغة: محمد عيد، عالم الكتب، 1988م، د.ط.
- 5- أصول التفكير النحوي: علي أبو المكارم، دار غريب، القاهرة، ط1.
- 6- الأصول في النحو: ابن السّراج، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1988.
- 7- الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، ط2، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- 8- إنقاذ اللغة من أيدي النحاة: أحمد درويش، دار الفكر، دمشق، ط1، 1991م.
- 9- البحث اللغوي عند العرب: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط8، 2003م.
- 10- تاريخ الأدب العربي الإسلامي: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت.
- 11- الخصائص: ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، د.ط، د.ت.
- 12- دراسات نقدية في النحو العربي: د.عبد الرحمن أيّوب، مؤسسة الصباح، الكويت، د.ط، د.ت.
- 13- الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه: خديجة الحديثي، جامعة الكويت، 1974، د.ط.
- 14- الشعر والشعراء: ابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ، د.ط.
- 15- الصاحبي في فقه اللغة العربية ولسان العرب في كلامها: أحمد بن فارس، ط1، الناشر محمد علي بيضون، 1997م.
- 16- ضوابط الفكر النحوي: محمد عبد الفتاح الخطيب، دار البصائر، القاهرة، 2006م.

- 17- في أصول النحو: سعيد الأفغاني، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، 1994، د.ط.
- 18- فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح: محمد بن الطيب الفاسي، تحقيق محمود يوسف فجّال، دار البحوث للدراسات الإسلامية، دبي، ط3، 2002م.
- 19- قضية الاحتجاج في النحو واللغة: حمزة بن قبلان المزيني، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد العاشر، 1998.
- 20- الكليّات: الكفوي، تحقيق: عدنان محمد درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1419.
- 21- لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، بيروت، 2000م، د.ط.
- 22- اللغة بين المعيارية والوصفية: د.تمام حسان، عالم الكتب، ط5، 2006م.
- 23- اللهجات العربيّة في التراث: أحمد علم الدين الجندي، الدار العربيّة للكتاب، 1983م د.ط.
- 24- المحاضرات والمحاورات: جلال الدين السيوطي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1424هـ.
- 25- المزهري في علوم اللغة: جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وآخرون، دار إحياء الكتب، مصر، د.ت، د.ط.
- 26- مصادر الشعر الجاهلي: ناصر الدين الأسد، دار المعارف، مصر، ط7، 1988م.
- 27- المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار، دار الدعوة، مصر، د.ط، د.ت.
- 28- موقف النحاة من الاستشهاد بالحديث الشريف: خديجة الحديشي، دار الرشيد، العراق، 1981، د.ط.

29- النحو العربي والدرس الحديث: د.عبد الرأجي، دار النهضة العربية، بيروت،  
1979م، د.ط.

- 
- (1) الأصول في النحو: ابن السراج، 37/1.
  - (2) لسان العرب "قري".
  - (3) المعجم الوسيط "قري".
  - (4) الكليات 159/1 فصل الألف والسين.
  - (5) المصدر السابق 159/1.
  - (6) الأغاني 367/4.
  - (7) الخصائص 29/2 وانظر: المهر 48/1.
  - (8) انظر: أباطيل وأسمار: محمود محمد شاكر 7، وإنقاذ اللغة من أيدي النحاة لأحمد درويش، وإحياء النحو: إبراهيم مصطفى، ودراسات نقدية في النحو العربي: عبد الرحمن أيوب.
  - (9) محمد عيد أستاذ علم اللغة الحديث بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة.
  - (10) الصأحي في فقه اللغة: ابن فارس 34.
  - (11) المهر: 107.
  - (12) الاستشهاد والاحتجاج باللغة 221.
  - (13) المصدر السابق 231.
  - (14) الاستشهاد والاحتجاج باللغة 221.
  - (15) انظر مصادر الشعر الجاهلي: ناصر الدين الأسد 593.
  - (16) الاستشهاد والاحتجاج باللغة 156، 157.
  - (17) الشعر والشعراء: ابن قتيبة 61/1.
  - (18) ضوابط الفكر النحوي: محمد عبد الفتاح الخطيب 203/1.
  - (19) الاستشهاد والاحتجاج باللغة 230.
  - (20) الخصائص 25/2.
  - (21) في أصول النحو: سعيد الأفغاني 24.
  - (22) انظر: في أصول النحو: سعيد الأفغاني 24.
  - (23) الاستشهاد والاحتجاج باللغة 261.
  - (24) المصدر السابق 181.
  - (25) اللغة بين المعيارية والوصفية: تمام حسان 32.

- 
- (26) الخصائص 191/1.
- (27) الاستشهاد والاحتجاج باللغة 264.
- (28) انظر: أصول التفكير النحوي: علي أبو المكارم 215.
- (29) انظر: ضوابط الفكر النحوي: محمد عبد الفتاح الخطيب 241/1.
- (30) المزهر في علوم اللغة: السيوطي 166/1، 167.
- (31) انظر: الاحتجاج بالشعر في اللغة: محمد حسن جبل، 202، وضوابط الفكر النحوي 236/1، والبحث اللغوي عند العرب: أحمد مختار عمر 52.
- (32) الاستشهاد والاحتجاج باللغة 254، 255.
- (33) المصدر السابق 256.
- (34) انظر: اللهجات العربية في التراث: أحمد علم الدين الجندي 50.
- (35) انظر: اللغة بين المعيارية والوصفية: تمام حستان: التمهيد.
- (36) انظر: النحو العربي والدرس الحديث: عبده الراجحي 147.
- (37) انظر: قضية الاحتجاج للنحو واللغة: حمزة بن قبلان المزيني 33.
- (38) الاستشهاد والاحتجاج باللغة 106.
- (39) المصدر السابق 106.
- (40) الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه: خديجة الحديثي 31.
- (41) ضوابط الفكر النحوي 266/1.
- (42) الاستشهاد والاحتجاج باللغة 108.
- (43) تاريخ الأدب العربي الإسلامي: د. شوقي ضيف 38.
- (44) انظر: فيض نشر الانشراح من طي روض الاقتراح: محمد بن الطيب الفاسي 53.
- (45) البحث اللغوي عند العرب: أحمد مختار عمر 41.
- (46) موقف النحاة من الاستشهاد بالحديث الشريف: خديجة الحديثي 411.
- (47) الاستشهاد والاحتجاج باللغة 182.
- (48) المصدر السابق 236.
- (49) المحاضرات والمحاورات للسيوطي 204/1.